الشعر والشعراء

بحث انتقادي ادبي

بقلم ميخائيل يوسف نعيمه

٣

حرية الابداع

قوانين الشعر ، كسواها من الشرائع والسنن ، تقيد الحر وتعتق المقيد ، فهي سجن للقريحة الوقّادة ومسرح لا تُحد اطرافه للقريحة الخامدة . دعوني ابسط هذه الحقيقة بالمثل .

تصوروا حظيرة محاطة بسياج من الشوك ، فيها الاسد والضبع والنمر والذئب والثعلب والارنب والخروف والحية والسلحفاة وربوات من عوام الهواء وحشرات الارض ، تخفرها زمرة من البدو مدججة بالرماح والسيوف والنبال ، وتصوروا ان اكبر فضيلة يطلبها صاحب تلك المخلوقات منها هي بقاؤها ضمن السياج .

يتخطر الاسد ذهاباً واياباً فيصل الى السياج وينظر الى ما وراءه فيرى

تتأجج في صدره . اصوات تناديه من الغابات ، واشباح في الفضاء تسحر ابصاره ، ونسمات من الجبال تزيد ناره ضراماً وتولد تحت ارجله مناخس لا ترحم ولا يُطاق ألمها . انظروا الى عضلاته تتجمع وتتوتر والى عينيه تقدحان شرراً وقد تحفز للوثوب من فوق السياج ليلبي دعوة الغابات ويخفف دقات قلبه .

« قف ! » — خيال الخفير يمر امامه فيذكره ان بقاءه ضمن السياج هو اكبر فضيلة ، بل الفضيلة الوحيدة ، التي يطلبها منه صاحبه ، والاسد ليس آخر المخلوقات في طلب الفضائل اذا كانت ترضي صاحبه ، فيرتد عن السياج وقد فارق البرق عينيه وسكنت لواعج النار في صدره

كذا يفعل النمر والذئب والضبع ، ولكن الالام التي يقاسونها وغصات القهر التي يشعرون بها عند ارتدادهم عن السياج تختلف باختلاف اطباعهم ، وشتان بين النمر والحمل .

هنا يتقدم ابن آوى الى السياج ، وبينا هو يحفر بيديه منفذاً ليخرج منه يرى صاحبه يقترب ، وعصاه في يده ، فيحييه بلطافة فائقة ويسأله عن صحة « المدام معلمته » ويعود جاراً ذيل الفخر بان صاحبه لم يكتشف حيلته ، وانه لا يزال يعده من الطائعين .

اما الارنب فيدنو من السياج واذ يلقي نظرة الى ما وراء الشوك ويرى ظل الاشجار ويسمع حفيف اوراقها او يسمع وقع اقدام الخفير يقفل للحال راجماً شاكراً ربه الذي من عليه بصاحب شفوق ليعتني به وبسلامته وليقيم

حوله الحصون والقلاع كي لا تلحقه يد اثيمة من ايادي تلك الابالسة المنفية خارجاً التي لا سياج حولها يقيها غدرات من هم اشد منها ولا صاحب لها يحافظ على امنها . وفوق ذلك فصاحبه راضٍ عنه لانه من الطائعين

وهناك اقبلت السلحفاة تتهادى وقد حفرت في قلبها تلك الآية الذهبية — في التأني السلامة وفي العجلة الندامة — لا تعد الدقائق ولا الساعات . ترى بقية الحيوانات حولها تركض وتزأر وتزمجر وتشكو وتتذمر وهي تسأل ذاتها بدهشة كلية ما معنى تلك الحركة كلها وما عسى ان يكون سبب ذاك التذمر ؟ تسمع الاسد يئن من ضيق المجال ويطلب الفضاء ، فتنظر يمنة ويسرة ولا ترى من عقبة في وجهها كيفما انقلبت ، فتضحك حتى تنقلب بطناً لظهر وتقول في ذاتها . « حقاً ان الجنون فنون » .

واذا حدث وقادتها خطواتها الى السياج يوماً تنير للحال رأسها يمنة او يسرة وتتابع السير . ويكفيها ان صاحبها راضٍ عنها ابداً ، فهي لم تسمع منه كلمة تأنيب في حياتها .

اما عن الحشرات فلا تسل . ربوات منها تدب فوق ربوات وكلها لا تطلب اكثر من فتر من الارض ، فهي ضمن السياج آمن على ذواتها وحريتها مما لو كانت خارجه ، وفوق ذلك هي تتنعم برضا صاحبها وتفتخر بنفس الفضيلة التي تربط النمر ورفاقه ضمن السياج

ولو تصورتم الان بدل سياج الشوك قواعد الشعر العربي وبدل الحيوانات

على كل حال) وبدل صاحب الحظيرة وحراسها مئات الاجيال والدواوين التي التفت حول اشواك السياج فحولتها الى اسنة تقطر سماً وحراب ينظر من اطرافها الموت واكسبتها هيأة سرية غريبة ، فجعلتها مقدسة في اعيننا ، مرهوبة في قلوبنا ، بعيدة عن ان يتناولها قلم الناقد او ان يلحقها لسان المصلح — لو تصورتم ذاك لادركتم كم دفنت اللغة العربية ضمن السياج من ارواح حرة ونسمات سماوية وقرائح حية وكم ادخلت اليه من اوانب وسلاحف وحشرات ، ولادركتم في الوقت نفسه حالة بشري خاطىء مثلي جاء يعثر الان حول ذاك السياج ، بل السور ، الذي شادته الاجيال وقدسته الايام والشرائع والعادات فجعلته مدفناً لحرية الخيال وقصراً للزعانف والديدان

انا احفر ، ولا امل لي ان ازعزع اركان هذا السور الى الابد (وحبذا لو كان ذلك في امكاني) انما لي امل ان اجد من يضم فأسه الى فأسي . لي امل ان اسمع صدى ندائي يتردد في ألحان بعض شعرائنا الناشئين . لي امل ان احرر ولو قريحة واحدة شعرية من قيود كبّلتنا بها زمرة من ابناء البادية قبل ان رأينا العالم او رآنا العالم .

دعوا النسور تحلق في جوّها فالفضاء كله وجد لاجلها . دعوا البزاة تسبح تحت سمواتها . دعوا الصقور تمزق الهواء باجنحتها ويريكم لا تحصروها مع الدجاج في الاقنان !

اذا شقّ عليكم ان تودعوا بحور الشعر أفلا سبيل لكم ان تستغنوا عن علمي العروض والقوافي ؟ وان لم يسهل عليكم ان تطرحوا الاوزان أفلا

طريقة نطرح بها عنا القافية ؟ واذا استحال علينا ان ننبذ القوافي أمن الواجب ان نلصق بكل بيت من ابيات القصيدة ذَنَباً و« كشكشاً » متشابهين ؟ ان كانت الغاية من القفية تشنيف السمع فبشها موسيقى نشنف بها آذاننا اذا كنا نسمع بين اللحظة والاخرى صوتاً واحداً لا يتغير كوقع الدلفة او نقيق الضفادع ! تصوروا قصيدة من ١٢٠ بيتاً او اكثر تسمعون فيها كل عشر ثوانٍ كلمة « عين » . نعم ، شجية هذه الموسيقى ولا شك ، ولكن عند بدوي يسير وراء جماله فيقطع ألحانه عَلَى وزن وطئها . وما اجملنا اليوم نقلد البدوي في نيويورك وباريس وبيروت والقاهرة الخ ! ! !

حتى لو كان في ذاك بعض اللذة الموسيقية فمن الحيف والجهل ان نضحي لاجلها حرية الابداع في الشاعر وان نطلب منه ان يشوه الفكر الذي يود نقله والصورة التي يرغب نقشها لاجل تلك اللذة التي لا اقدر ان ادعوها ، مع كل اعتباري للموسيقى ، سوى بلادة موسيقية

حرام ان نشري الزجاج بالماس ، وان نضحي الجوهر في سبيل العرض . قد دفعنا حتى هذا اليوم جزية باهظة للقواعد والتقاليد ولا نزال ندفع ضريبة فاحشة من الافكار الجميلة والخيالات السحرية والصور الفنية لتلك التقاليد عينها . ويخال لي — وانا موكد تقريباً حقيقة خيالي — ان تلك التقاليد هي اكبر الاسباب ، بل السبب الوحيد الذي حرمنا من شاعر روائي كبير كهوميروس ومن شاكله من القدماء وقضى عَلَى ابناء الضاد ان لا يكون

لكن تصوروا — حفظكم الله — هوميروس يكتب الياذته او اوديسيته باللغة العربية ! او شكسبير ينسق رواياته الابدية حسب قواعدنا الشعرية !

تصوروا دانت ينظم « كوميديته الالهية » بقافية واحدة او بعشر قوافٍ اذا شئتم ، او ملتن ينشد « فردوسه المفقود وفردوسه المردود » بقافية عينية او حائية او شينية ! ..

أغريب بعد ذلك أن كل ما ظهر من الشعر في اللغة العربية من عهد عاد وثمود الى الان لم يتعدَّ بضعة ابواب محصورة بين حماسة وغزل وهجو ومدح ورثاء ؟

أمن العجب ان شعراءنا اليوم لا يتجاوزون هذه الحدود التي وضعها لهم الاسلاف ؟ انا لا ألومهم في ذلك ، انما لا اقدر ان افهم كيف انهم لا يزالون يجرون نيراً ثقيلاً تقرحت رقابهم تحته ولم يخطر لواحد منهم ان يطرحه عن عنقه .

انا لا اصدق بوجود شاعر عربي لم يناطح القوافي ويطاردها ولم يصرف دقائق ، بل ساعات ، بل ليالي في حربها والتنقيب عنها . انا لا اصدق بوجود واحد لم يشعر في مثل تلك الساعات بثقل النير وضغطه وبلعنات تتراكض الى اطراف لسانه خارجة من اعماق قلبه . واذا كنا الى الان لم نسمع شكوى ولم نرَ اعتراضا فذاك لاننا ألفنا احتمال الضنك « عَلَى السكت » ، وكثيراً ما نفضل ان نصبر عَلَى الضيم من ان نرفع ضده صوتاً

الفنون الجميلة ، كسواها من مناهج هذه الحياة وفروعها ، معرضة

للظلم والفساد والعبودية والاستبداد فهي تحتاج بين الفرصة والاخرى الى محررين يجرأون ان يرفعوا صوت الاعتراض ضد قيود الاستعباد · للمماليك محرروها وللاديان مصلحوها وللفنون محيوهـا · والشعر كفن جميل يحتاج دائماً الى نسمة حياة جديدة تنعش عظامه القديمة · وشعرنا العربي لا دواء له سوى ثورة تزعزعه من اركانه فتقتلع كل ما عفن وانتن من اصوله وتقيم على انقاضه بناء جديداً للقريحة العربية الحرة ·

واني لارى الغيوم تتلبد والفضاء يقتم والبرق يلمع واسمع زعزعة الريح عن بعيد وولولة الاشجار في الغابات ·

واني لاشتم رائحة العاصفة وقد انتشرت في الهواء · وليس ذاك اليوم بعيداً حين تقصف اول رعدة وتنفجر اول سحابة لتجرف اوهامنا الشعرية وتعتقنا من قيود تكاد تذهب بانفس ما فينا من المواهب والامال · لا بل قد اتى ذاك اليوم فاني لاقرأ في نثر جبران خليل جبران مرثاة للشعر القديم وقواعده ، وفي بعض اشعار « اليف » ازى لحد القافية المتتابعة في كل بيت من ابيات القصيدة ·

واذا كنت قد اطلت الحديث في هذا الباب فذاك لان قشعريرة تعتريني عندما افكر بالساعات والايام والسنين الذهبية التي تصرفها شبيبتنا داخل المدرسة وخارجها في الاعتناء بحفظ كل مـا يتعلق بالنظم من القواعد والقوانين وفي درس قشور الشعر لا لبه · لاني ارى امتنا السورية التاعسة

حله منها بايدينا وكفانا يا قوم ما نحمله من تظلم الغير وتعديهم . واخيراً لاني ارى مواهب شعرية حقيقية وقرائح حرة حية تذهب ضحية الاوهام التي ورثناها عن ابناء البادية فتنسحق تحت ثقلها او تضيع بين منعرجاتها وسراديبها وبما اني لا ارى عندنا من المواهب ما تقدر ان نستغني عنه او نفرقه عَلَى الغير او نقدمه ذبيحة لعلماء الشعر وأئمة اللغة فانا اغار عَلَى كل ذرة منها تذهب سدى او تموت لان جراثيم الموت التي ورثناها عن اجدادنا تولد معها وفي امكاننا ان نستأصل تلك الجراثيم اذا شئنا .

وقد آن لنا ان نقف ولو مرة في الفي عام امام هذا السور الحديدي من الاوهام والتقاليد التي زفها الينا الاسلاف ونسأل ما هو وهل نحن في حاجة اليه . آن لنا ان نكف ولو برهة قصيرة عن حرق بخورنا امامه ليتبدد عنه دخان الدهر فنراه في هيأته الحقيقية . ولو فعلنا ذلك لانقشعت عن ابصارنا غمامة رافقتنا دهوراً ولم نكن ندري بها .

فحبذا يوم نسمع فيه شاعرنا يوقع ألحانه عَلَى الاوزان التي يختارها قلبه وتميل اليها نفسه دون ان يرى ذاته مربوطاً بلوازم العروض والقوافي . حبذا اليوم يوم لا نعود نعبد فيه الهيأة الخارجية او نقيس الشاعر بقواعد الصرف والنحو . وحبذا اليوم ندفن فيه الطائيات واللاميات والعينيات والخاليات في غبار التاريخ ونفتح لشعرائنا مجالاً للخيال والتعبير لا تحصره قافية ولا يقيده روي !